

النزعة الإنسانية في كتابات و أفعال الأمير عبد القادر "إنسان مترع بإنسانيته"

عبد القادر بوعرفة⁽¹⁾

مقدمة

تجسد النزعة الإنسانية في الثقافة الإسلامية أولا في الحكمة العملية لا النظرية، فالإنسانية كنزعة لا بد أن تكون سلوكا ممارسا على أرض الواقع، لأن المعلم الأول للمسلمين كان قرآنا يمشى على الأرض. أما التنظير فهو مكمل للعملي، لأن العملي في صورته البسيطة لا يحتاج إلى فلسفة ونظر لمطابقته الفطرة الإنسانية، لكنه كلما تعقد أمره وتنوع شكله كانت الحاجة إلى التنظير أشد.

أعطى الأمير عبد القادر من خلال مواقفه وكتاباته مثلا حيا وتجربة تاريخية عن الإنسان المتجذر في إنسانيته، الذي يُعطي للعمل (كمقابل للنظر) القيمة الفضلى على النظر، فمقياس كمال الإنسان بعمله لا بنظره، لأن العمل قاعدة عامة يشترك فيها الإنسان العادي والكمال معا، أما النظر فهي خاصية الإنسان المترقي في سلم الكمال.

الرمز والتاريخ

يرى كثير من فلاسفة التاريخ، أمثال هيجل وهيربرت ماركيز... أن الثورة ليست تلك الوقائع الماثلة للعيان، وإنما حقيقة الثورة تكمن في الروح التي تسكن الأحداث وتحركها، فالنبيل (الإنسان المتفوق) عند هيجل هو روح التاريخ كما تمثله في شخص نابليون بونابرت، أما ماركيزو راهن على الطلبة كقوة مُغيرة ومُؤطرة لروح الثورة... ولعل غوسيت

⁽¹⁾ Université Oran 2 Mohamed Ben Ahmed, 31000, Oran, Algérie.

أورتيجاس كان أكثر جرأة من غيره حين أكد في كتابه (ثورة الجماهير) أن الثورة ليست من صنع الكتل اللحمية (الجماهير)، وإنما الثورة يصنعها الرجال الملمهون فقط.

ويمكن القول أن دراسة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ينبغي أن تُدرس ضمن ما يسمى فلسفة التاريخ، التي تبحث عن اللامنطوق خلف الحدث والواقعة والظاهرة التاريخية، وتحاول أن تستقرأ العبرة منه، وأن تكتشف الأطر المُسيرة له.

لازال التاريخ الجزائري في كثير من كتاباته رهين الآخر (الغرب)، فعندما يؤرخُ الآخر للحدث الوطني، ويتولى هو ذاته مهنة أرسفة الماضي فإنه يستلبه استلاباً ويُغربه تغرباً، فيصبح التاريخ عندئذ مطية للمغالطة، وجسراً لتميرير خطاب الاحتواء، ويحاول آخر الأمر تدجين الأمم المُغزوة وفق ما يريد، كغازٍ متعالٍ حضارياً.

وليس الأمر بغريب، لأن أغلب الأمم الغازية دأبت على تولي مهنة التأريخ للأمم المُستحمة، لعلتين هما على النحو الآتي :

1. يمثل التاريخ الذاكرة الحقيقية للجماعة والأفراد، ومنه يصبح التاريخ الخطر الأول على الوجود الاستيطاني، لكونه يحمل الخصوصية الثقافية، ويعطي البعد الحقيقي للهوية، ومن ثمة يغدو المعلم الثابت لرفض المحتل والمرجعية الأولى للجهاد.

يسعى الآخر لتفادي أي احتمال للرفض، فيلجأ إلى توجيه التاريخ وفق ذرائعته وفلسفته، وذلك من خلال تميريره لخطاب تاريخي يحمل ظاهرياً معالم العلمية والموضوعية، لكن محتواه الحقيقي ينم عن نزعة استحمارية بغیضة.

2. يفرض الصراع الحضاري على الأطراف منهج تغليب الرؤية التاريخية، وجعل الآخر معلم الحدث، وتقديمه للأنا في صورة المتحضر ذو النزعة الإنسانية العالية، وفي المقابل إبراز الشخصية المحلية كنموذج متخلف وهمجي (أنديجان)، مما يوحي للفرد الناشئ أن بقاء الآخر في بلده أولى من جلائه.

3. يفرض الصراع في البلاد المُستحمة ترويج المُستحمر نفسه على أنه يمثل قيمة الإنسانية وذروة الحضارة، بينما يصف عدوه المُستحمر بأنه همجي وبربري. ونلاحظ ذلك جلياً في الكتابات الصُحفية الفرنسية التي كانت تصف أبطال المقاومة الشعبية بالبرابرة والدموميين وقطاع الطرق، بينما تصف قادة الجيوش الفرنسية بالعظماء والأبطال، متناسية المجازر المرتكبة في حق الجزائريين العزل والأبرياء.

ولهذه الغايات وغيرها أسس الاستعمار الأوربي الحديث علم الإناسة [الأنثروبولوجيا] لأجل تسهيل عملية استعمار شعوب الجنوب، فأغلب الحملات العسكرية إلا وتصطحبها جحافل من علماء الأنثروبولوجيا، يندسون في شرائح المجتمع المدني مقدمين أنفسهم كأصدقاء للأهالي، والخطورة تكمن هنا بالذات، فالأنثروبولوجي يستطع اختراق المحظور، والتوغل في الثقافة الشعبية، ويربط علاقة تضايفية معها، فيتحول من عدو إلى صديق، ومن الآخر الغريب إلى الآخر الحميم، والتّمودج الذي يمكن أن نستدل به على صحة المعطى ما فعله كل من الأب شارل دو فوكو، إيدمونت ديوت، لويس رين...

إن الاستئناس الذي يحصل عليه الأنثروبولوجي مع الأهالي، يُمكنه من توجيه أذهانهم وسلوكهم من خلال تشكيله لخطاب تاريخي يمس صميم عمق الجماعة، فيؤثر سلبا على الوعي الجمعي، ويقضي على بقايا معالم الاعتزاز لديه.

وحتى في حالة عدم القدرة على البقاء في البلاد المحتلة، فإن الخطاب التاريخي المؤسس من طرف الكولونيالي. الضابط، القديس، والعالم سيعمل فيما بعد على صبغ التاريخ المحلي بصبغة حربائية، إذ يتلون بلون الثقافة المحلية في القضايا الهامشية المشبعة بالخرافة والأساطير، أو كما نطلق عليها اليوم بالثقافة الفلكلورية، أما عند تناول القضايا الجوهرية والمصرية يتلون الخطاب بثقافة الاستلاب والتغريب.

تبدو مشكلة المؤرخ الجزائري اليوم سواء كان مؤرخا رسميا أو محترفا في اعتماده الكلي على ما كتبه الفرنسيون حول الجهاد الشعبي. ومن هنا نريد توضيح تهافت الخطاب التاريخي الكولونيالي وعدم استقلالية، وأصالة الخطاب التاريخي الجزائري من خلال نصوص صانعيه، وليس مذكرات الضباط والقساوسة.

فلو افترضنا أن التعصب نال منا حظه، والمخيال المتعالي جنح بنا في سماه، بالرغم من ذلك فإننا لا يمكن أن ننكر حقيقة ماثلة للعيان كون الفرنسي سواء كان أبا، أو ضابطا، أو عالما أنثروبولوجيا، هو الذي تصدّر كتابة ما نسميه اليوم بالمقاومة الشعبية، ليس من باب الروح العلمية أو النزعة الإنسانية، ولكن من أجل استكمال المخطط الاستيطاني الذي قسم كما يلي :

1. احتلال الأرض.
2. احتواء العقل.
3. اجتثاث اللسان.

سؤال البدء

تشجب أغلب الخطابات الغربية النزعة الإنسانية عن المسلمين وفلسفتهم، وتحاول حصرها في الغرب... الذي استطاع أن يتخلص من عقدة الدين والماضي، وأمن بقيم الحرية والعدالة والإخاء، لذلك أصبحت النزعة الإنسانية في الفلسفة الغربية مرتبطة بقيم الديمقراطية ومقولات فلاسفة الأنوار.

لكن بالرغم من ذلك، نقر أن المغالطة التاريخية تكمن في بنية الخطاب الغربي ذاته، فهو من حيث البنية النظرية مفعم بالنزعة الإنسانية التي تقدر الإنسان وتجعله معيار كل الأشياء، بما فيها الله والكون، لكن السلوك والممارسة العملية ظلت بعيدة عن النزعة الإنسانية، فلقد شهد عصر ما بعد الأنوار حركة استدمار واستحمار للشعوب غير الأوروبية بحجة أن الطبيعة أهدت للعنصر الأوروبي الأعراق الدنيا لتخدمه مدى الحياة وفق فلسفة أرنست رينان وغيره من فلاسفة الغرب.

إن كتاب أرنست رينان (Reforme Intellectuelle et morale de la France) يعكس النزعة الإنسانية المغلقة، فالإنسان المختار هو الذي تتحدد معالمه من خلال المعيار التالي: "الاستعمار إنه ضرورة سياسية في الدرجة الأولى... إن غزو بلد من عرق أدنى من قبل بلد من عرق أعلى لا يدعو إلى الاستهجان... عندما يكون الأمر بين الأعراق المتساوية فذلك يدعو إلى الاستنكار"¹.

تحصر الفلسفة الغربية الإنسانية في بلازما محيطها الثقافي والجغرافي فقط، فالإنسانية الأوروبية إنسانية تفتقر لعنصر العالمية، لأنها تتوقع على ذاتها، وفُصِّلت فلسفياً لنوع إنساني، قيل عنه أنه مُفرط في إنسانيته وفردانيته إلى حد الجنون.

لقد استطاع مالك بن نبي أن يسبر غورها حين قال :

"... فكيف يتأتى للعالم الإسلامي أن يبحث عن إلهام فلسفة الإنسانية فيما وراء تقاليد العريقة؟ إن حديثنا عن إنسانية أوروبا لا يكون حديثاً عن نزعة إنسانية (جذبية) دون إشعاع، وفي هذه الحالة نراها تعني (إنسانية أوروبية) في الداخل، و(إنسانية استعمارية) في الخارج، وهذه الأخيرة قائمة على أفبح المعادلات السياسية وأشتعها: فالإنسان في عرفها مضروباً في المعامل الاستعماري يساوي صفراً." (مالك بن نبي، 1986)

¹ نقلا : عبد القادر بوعرفة، وآخرون. (2007). دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية. الجزائر : منشورات وزارة المجاهدين، صص. 92-93.

إن حضور النزعة الإنسانية ليس بالضرورة موصولاً بالخطاب والفكر، بل معيار إنسانية الإنسان هو سلوكه اليومي، فالخطاب الإنساني يخفي وراءه خطاباً لا إنسانياً في أغلب الأحيان، لأن السلوك هو الترجمة الفعلية للفكرة والمعتقد وفق مبادئ علم النفس.

إننا ندرك من خلال التجارب اليومية بأن الخطاب يُعد من أشد الآيات فتكاً بالقيم الإنسانية، فأشهر أنصار النزعة الإنسانية (نظرياً) كانت أفعالهم عدوانية و ضد الإنسانية، ولنتأمل مواقف ماركس، توكفيل، هيدجر، هابرماس ...

نحن لا نريد أن نقلل من أهمية الخطاب الإنساني كأفق فلسفي يعطي للإنسان قدسيته المغتالة عبر أزمنة التواجد، ويوجد فيه المعذبون فوق الأرض الترياق والخلاص الذهني من جبروت الطغيان وعالم العبودية. لكن بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن يُؤمن العاقل بتغليب العمل على النظر، فسحر الكلمات يفقد شرعيته أمام صدق الفعل، والنتائج العملية أصدق من المقدمات النظرية.

ومن خلال ما سبق، أميل إلى تغليب النزعة الإنسانية العملية لكونها لا تختفي وراء الكلمات والأشياء، بل تصدر عن وعي واعتقاد بغض النظر عن التقييم الديني. لم يتحدث الفكر الإسلامي عن النزعة الإنسانية وفق فلسفة مخصوصة، لكنه مارسها في سلوكياته اليومية، لقد كانت كالصلاة المؤسسة على ركن العمل.

لقد تجلت النزعة الإنسانية في شخص النبي محمد من خلال سلوكها اليومي، وكان أبرزها على الإطلاق: "اذهبوا فأنتم الطلقاء..." يومها خاطب الإنسان ونسي العدو اللدود استمرت النزعة الإنسانية الإسلامية في أتباع محمد، من أول خليفة للمسلمين إلى آخر قائد فاتح، وكان الأمير عبد القادر ضمن تلك السلسلة المترعة بالإنسانية المفتوحة، إذ اقتدى بالرسول في تكريمه للإنسان وتعظيمه لإنسانيته، وسن القوانين لجيشه من خلال تعاليم الرسول الكريم*.

تقف جل الكتابات المعاصرة عند إنسانية الأمير عبد القادر، والتي لم يرسم حروفها من خلال الشعر والخطاب الصوفي فقط، بل كان قد رصها رصاً بأعماله ومواقفه اليومية. إن مواقفه مع أعدائه رسمت صورة الفارس النبيل المزين بقيم الشهامة والفروسية، فكان

* راجع كتاب (وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب) الذي ألفه قدور بن محمد بن رويلة بناء على طلب من الأمير عبد القادر، والذي أمل عليه أغلب بنوده.

يطعم الأسرى مما يأكل، وببيديه في أغلب الأحيان... ثم كان موقفه الأروع مع الأقلية المسيحية في دمشق، أين برزت إنسانية الأمير التي انبثقت من مرجعياته الإسلامية.

وحدة العقل الإنساني

تتأسس النزعة الإنسانية عند الأمير عبد القادر على وحدة العقل البشري من حيث هو قسمة عادلة بين البشر، فالله ساوى بين الناس في قوامة الجسم ومبادئ العقل، وترك التنافس في تفتيق تلك الهبة الربانية من خلال عملية التفكير، ومن ثم ينشأ الاختلاف بين البشر، فمن استطاع أن يستثمر تلك المنحة الربانية أمسك بأسباب القوة والحضارة، ومن استكان للغفلة فمصيره عالم الهيمية والجهل.

حاول الأمير من خلال كتابه ذكرى العاقل وتنبية الغافل، أن يُنبه الناس جميعاً إلى العلامة الدالة على وحدة البشر، ومن ثمة يستطيع البشر إدراك الأصل والجوهر في حقيقتهم الإنسانية، فالعقل فوق الدين والعرق والتاريخ، بل لا يفهم الدين إلا من خلال تصورات العقل، وعلى هذا الأساس فالناس إخوة ليس بوحدة الأب (آدم) بل بوحدة العقل. حاول أحمد البرقاوي من خلال دراسته ذكرى العاقل أن يؤكد على عقلانية الأمير وإنسانيته من خلال استنتاجه :

"لأن فكرة العقل التي يدافع عنها الجزائري فكرة عامة ومشتركة بين الناس فإن للحقيقة طابعها الإنساني العام، حيث إن الحقيقة جهد البشر جميعاً، بمعزل عن انتماءاتهم الإثنية والقومية. لهذا لا يسأل الجزائري عن مصدر الحقيقة، بل عن الحقيقة لذاتها، فانتماؤه إلى الإسلام كثقافة ودين لا يمنعه من اكتساب الحقائق ممَّن هم على غير دينه وثقافته." (البرقاوي، 1995)

إن العاقل الذي تفتن بالحدس ثم بالاستدلال على أن العقل هو جوهر كينونة البشر، لا يمكن أن يكون إلا إنسانياً فكراً وسلوكاً، وتتفجر ينباع الرحمة من قلبه وأنوار الحق من بصيرته، فيستوي الناس عنده استواء معلوماً، بحيث لا يفرقهم لون أو لسان أو لباس، فالناس أمام العقل سواسية.

تفرض الإنسانية كحق واجب الفعل، فحرية التعبير والرأي كفعل إنساني تعتبر من أجل تجليات الإنسانية، ولقد كان الأمير يجيز للناس حق الاختلاف المشروط باحترام الإنسان.

وحدة الحقيقة الإلهية

يُفرق الأمير بين نوعين من الحقيقة، الحقيقة التاريخية التي تتولد من تجارب البشر وعاداتهم وتصوراتهم، والحقيقة الإلهية المتعالية عن الأحكام التاريخية، فالحقيقة التاريخية يكتنفها التعصب والتطرف، ويقدوها الوهم والجهل، وأكبر منتج لها التقليد والمحاكاة، فالحقيقة التي تُبنى على أساس النماذج الجاهزة هي أكبر معقل للتفرقة بين الناس، وأسهل طريقة لاستعباد الناس بعضهم بعضا.

أما الحقيقة الإلهية المتعالية فهي تجمع ولا تفرق، لأن الناظر والمتأمل وفق أصول العقل، يدرك الحقيقة الإلهية في كليات الحقيقة التاريخية، فليس هناك خلاف بين الأديان على مستوى التوحيد، فكل الأديان السماوية تؤمن بالله الواحد، لكن نشأ الخلاف بفعل الأحكام التاريخية التي تغذت بفعل التاريخ وحمولاته المعرفية والإيديولوجية.

إن الحقيقة الإلهية هي ذلك الإجماع الإنساني حول موضوع ما، فمحبة الصدق وكره الغدر لا يختلف فيها أحد. وهو القول نفسه الذي ردد جون جاك روسو حين قال أن البشر توحدتهم الطبيعة...

إن الصراع الديني والطائفي لا مبرر له حين يرى العاقل أن الغاية من التدين هو معرفة الله، فالمتدين الذي آمن بالله وفق مبدأ التقليد والوراثة الاجتماعية، لا يمكن أن يكون متسامحا ومحبا لأخيه الإنسان، أما الذي آمن بالله بعقله وقلبه، يستوي عنده الناس أجمعين، فكلهم إنسان وجب حبه واحترامه، وحرّم قتله وإفساده.

أدرك الأمير معنى مدلول قوله تعالى : {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}*. فالحقيقة الإلهية تكمن في الكلمة التي أساسها عدم استعباد البشر لبعضهم بعضا، وعبادة خالق كل البشر.

تتضايّف الحقيقة الإلهية مع الفطرة الإنسانية تضايفا دلاليا، فالحقيقة علامة من علامات الفطرة السليمة التي فطر الله عليها آدم وبنيه، ولذلك يُمَيِّزُ الإنسان بين الخير والشر، الجمال والقبح، الصدق والكذب... وتكاد تكون أحكام البشر عبر تاريخها متجانسة ومتقاربة، لأن الحقيقة عامل توحيد بالرغم من إكراهات التاريخ :

* سورة آل عمران، الآية : 64.

"والحقيقة عامل توحيد بين البشر، رغم اختلافهم، وهذا ما ينزع عن الدين صفة التعصب التي هي أحد أسباب الانقسام الطائفي. ومن هذه الزاوية فإن الجزائري، إذ يميّز بين الحقيقة الإلهية (كالتوحيد مثلاً) وبين الأحكام التاريخية، فإنه يبحث عن ذلك الذي يزيل الاختلاف بين المنتمين إلى الأديان المختلفة التي توّجدها حقيقة واحدة."²

إذا كان بعض الناس ينتقد الأمير لكونه دخل المحفل الماسوني، فالعلة تكمن في اعتقاده أن الناس إذا اجتمعوا حول الحقيقة الإلهية فليس هناك مُسَوِّغ لوجود الطوائف والمذاهب، ما دامت الحقيقة تتجه نحو إثبات الله وقيمه السامية أولاً، وتكرم الإنسان وتحترمه ثانياً.

إنسانية الإسلام

ليس من باب الترويح والدعاية القول بأن الله سبحانه وتعالى أقر في كتابه العزيز أن الناس سواسية من حيث الأصل والمصير، الحق والواجب، الحياة والموت... وأنه حين تحدث عن الحياة ومشكلات الإنسان استعمل كلمة الناس أو الإنسان، وتلك تدل على أن خطاب المولى لا يقتصر على المسلم بل كل عباد الله دون استثناء.

ومن خلال تلك الآيات الدالة على قدسية الإنسان، استنتج علماء الإسلام عظمة النفس البشرية ومدى حرمتها عند الله، فيكفي القرآن ذكراً أن آية واحدة منه أسست للإنسانية المفتوحة، فقله تعالى: {مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} * فالآية تدل دلالة قاطعة أن نفساً واحدة تساوي ما لا نهاية من الأنفس في الحاليتين، وأن الإنسان الكريم هو الذي يُحيي لا الذي يقتل.

ولقد كان الرسول يوصي أصحابه بالناس خيراً، كعدم التعرض للعباد في صوامعهم، والعجائز والشيخوخ، والأطفال والعبيد، والنبات والحيوان، وحرّم قتل الأعزل أو المستجير، أو الناطق بالشهادة ولو تكلفاً، بل طلب الرسول من جنوده إطعام الأسرى من طعامهم، وعدم شد وثاقهم...

² المرجع والمكان نفسه.

انعكست تلك الوصايا على الأمير عبد القادر، إذ طبقها في مساره التاريخي، فكان اقتداؤه بالرسول المفتاح الذي أدخله التاريخ من بابه الواسع. ويتجلى الاقتداء في بنود القانون الذي رسمه لجيشه وأنصاره من الشرفاء والأجواد، والذي نذكر منه ما يلي :

1. أي فرنسي يتم أسره في المعارك يجب أن يُعتبر أسير حرب، وأن يعامل كذلك، إلى أن تتاح فرصة تبادله مقابل أسير جزائري.
2. تحريم قتل الأسير والمُجرد من السلاح.
3. معاملة الأسير معاملة حسنة، وفي حالة شكوى الأسير، تسقط المكافأة ويتعرض لعقوبات.
4. كل من يقدم أسيرا فرنسيا يحصل على مكافأة قدرها (8 دورو).
5. مداواة الأسرى وإطعامهم من طعام الجيش.

إن القانون الإنساني الذي رسخه الأمير في القرن التاسع عشر جعله يُدرج ضمن رواد القانون الإنساني، ولذلك نُظِم ملتقى دوليا داخل قصر الأمم المتحدة في جنيف من 3 إلى 21 أبريل 2006، وُسِمَ ب : الأمير عبد القادر الجزائري، رائد القانون الإنساني، ومنشد الحوار بين الديانات. حيث أشاد جل المتدخلين بالبعد الإنساني في مواقف الأمير عيد القادر.

فلسفة محي الدين بن عربي

لا يمكن فصل الأمير عبد القادر عن الشيخ محي الدين بن عربي، فلقد أثر فيه تأثيرا كبيرا، خاصة في مجال المعرفة ومحبة الإنسانية والتفكير فيها.

لقد كان ابن عربي من بين أهم أعلام الفكر الصوفي في مجال التزعة الإنسانية، وأكثرهم دفاعا عن الإنسان الحيواني الذي لم يصل بعد إلى مصاف الكمال. إن ابن عربي يعتقد أن الإنسان أشرف الموجودات حتى في حيوانيته* ، ويزداد شرفا وكمالا كلما انتقل من حال

* "اعلم أن النشأة الإنسانية بكمالها روحا وجسما ونفسا خلقها الله على صورته، فلا يتولى حل نظامها إلا من خلقها، إما ببيده- وليس إلا ذلك- أو بأمره. ومن تولاها بغير أمر الله فقد ظلم نفسه وتعدى حد الله فيها وسعى في خراب من أمره الله بعمارته. واعلم أن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله. أراد داوود بنائة البيت المقدس فبناه مرارا، فكلما فرغ منه تهدم، فشكا ذلك إلى الله فأوحى الله إليه أن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء، فقال داود يا رب ألم يكن ذلك في سبيلك؟ قال بلى! ولكنهم أليسوا

الحيوانية إلى حال الإنسانية، أو من حالة الآدمية إلى حالة الرسولية، فكل إنسان رسول ذاته إذا وعى الحق سبحانه وتعالى، وما الرسل عبر التاريخ إلا الوسيلة التي يستنطق بها الله إنسانية الإنسان المدفونة تحت برائن جهله وحبه للمادة. وشرف الإنسان ليس في طريقة خلقه بل فيما أوتي من الفهم والتعقل، فعندما خلق الله آدم على صورته كان القصد التمييز بين مقام الإنسانية والآدمية :

"خلق الله الإنسان، مختصرا شريفا جمع فيه معاني العالم الكبير، وجعله نسخة جامعة لما في العالم الكبير، ولما في الحضرة الإلهية من الأسماء، وقال فيه رسول الله : إن الله خلق آدم على صورته... فإن الإنسانية تجمع الذكر والأنثى، والذكورية والأنوئية، إنما هما عرضان ليستا من حقائق الإنسانية لمشاركة الحيوان كلها في ذلك." (ابن عربي، 1998)

إن الأمير عبد القادر من المنطلق السابق كان يمارس مفهوم الإنسانية، فالإنسان إنسان بما وضعه الله في فيض روحه، وما الاعتقاد والتدين إلا من إرادة الإنسان، ولذلك على العاقل العارف أن يعامل الإنسان من هذا الباب ، وكان الأمير يحتج بأبيات ابن عربي التالية :

عبادي ؟ قال يا رب فاجعل بنيانه على يدي من هو مني، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان بينيه. فالغرض من هذه الحكاية مراعاة هذه النشأة الإنسانية، وأن إقامتها أولى من هدمها. ألا ترى عدو الدين قد فرض الله في حقهم الجزية والصلح إبقاء عليهم، وقال " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله " ؟ ألا ترى من وجب عليه القصاص كيف شرع لولي الدم أخذ الفدية أو العفو، فإن أبي حينئذ يقتل؟ ألا تراه سبحانه إذا كان أولياء الدم جماعة فرضي واحد بالدية أو عفا، وباقي الأولياء لا يريدون إلا القتل، كيف يراعى من عفا ويرجح على من لم يعف فلا يقتل قصاصا؟ ألا تراه عليه السلام يقول في صاحب النسعة " إن قتله كان مثله"؟ ألا تراه يقول "وجزاء سيئة سيئة مثلها؟" فجعل القصاص سيئة، أي يسوء ذلك الفعل مع كونه مشروعاً. "فمن عفا وأصلح فأجره على الله" لأنه على صورته. فمن عفا عنه ولم يقتله فأجره على من هو على صورته لأنه أحق به إذ أنشأه له، وما ظهر بالاسم الظاهر إلا بوجوده، فمن راعاه إنما يراعي الحق. وما يذم الإنسان لعينه، وإنما يذم الفعل منه، وفعله ليس بعينه، وكلامنا في عينه. ولا فعل إلا لله ؛ ومع هذا ذم منها ما ذم وحمد منها ما حمد. ولسان الذم على جهة الغرض مذموم عند الله. فلا مذموم إلا ما ذمه الشرع، فإن ذم الشرع لحكمة يعلمها الله أو من أعلمه الله، كما شرع القصاص للمصلحة إبقاء لهذا النوع وإرداعاً للمعتدي حدود الله فيه. "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب". وهم أهل لب الشيء الذين عثروا على سر النواميس الإلهية والحكمية. وإذا علمت أن الله راعي هذه النشأة وإقامتها فأنت أولى بمراعاتها إذ لك بذلك السعادة، فإنه مادام الإنسان حيا، يرجى له تحصيل صفة الكمال الذي خلق له، ومن سعى في هدمه فقد سعى في منع وصوله لما خلق الله. " معي الدين، ابن عربي، فصوص الحكم، تعليق : ابو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1946، صص. 167-168. (حكمة يونسية).

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أين توجهت ركائبي فالحب ديني وإيماني

إن هذا الحب الكبير الذي يحمله الفكر الإسلامي للإنسان، جعل الأمير يزور الكنائس ويجالس رهبانها إبان إقامته في فرنسا، ويتأسف عن اعتقاده السابق الناجم عن قلة عرفان ونقص في البرهان، فالكنيسة والمعبد والمسجد، مجرد أمكنة وصور عظمتها فيما تُعَدُّه على الإنسان من سعادة ومعرفة الحق. إن كل من يقرأ الأبيات السابقة أو يسمعها، يشعر بتلك الزعة الإنسانية المفتوحة التي تفيض بالحب والاحترام للبشر، إن حال الأمير يمكن تشبيهه بحال ناصر أبي زيد حين سمعها مغناة فقال :

"وكم سعدت وأنا استمع لهذه الأبيات ملحنة مغناة ... وكم غمرني الفرح حين علمت بتأسيس جمعيات في بلدان غربية باسم ابن عربي، هذا المشروع الذي صاغه ابن عربي صياغة شعرية باسم دين الحب يجمع بين "الدير" و"الكعبة"، و"بيت الأوثان"، و"مرعى غزلان"، فقلب العارف يتسع لكل هذه الصور من العبادات والشعائر، ويؤمن بكل هذه المعتقدات لأنه يعرف الأصل الوجودي الذي تستند إليه جميعها." (نصر حامد، 2002)

لقد أثر ابن عربي في مواقف الأمير أثناء الجهاد، فرعايته للأسرى بنفسه، وحرصه على حياتهم وسلامتهم، نستشفها من تأويلات أستاذه ابن عربي حين قال :

"أرحم من وافق الحق ومن خالفه رحمة له، فإن ذلك قسمة، فإن الكافر إذا رحم المؤمن خفف الله عنه، وإذا رحم المؤمن الكافر وفي الله له، الكل خلق الله ومضاف إليه، فتعظيم خلقه تعظيمه، فطوبى لمن رحم خلقه، ولا يلزم من رحمهم أن يلقي إلى أعداء الله بالمودة. أرحمهم من حيث لا يعلمون." (ابن عربي، د. ت)

هكذا كان سلوك الأمير، الرحمة والعفو، ولين الجانب، ورعاية خلق الله بالرغم من كفرهم وغزوهم لبلادهم. وتدبير شأن الخلق لما تتطلبه صفة الخلافة، لأن الخليفة ليس الحاكم بأسباب السياسة، ولكن الخليفة من اكتملت إنسانيته، وحاكي الرسول محمد لأنه أكمل البشر منذ بدء الخليقة (ابن عربي، 1990).

الأمير رائد التجربة الإنسانية الحديثة

شكلت المرجعيات السابقة شخصية الأمير وبلورت نزعته الإنسانية، والتي سجلها التاريخ من خلال تلك الأحداث التاريخية الشهيرة، وخاصة بعد نهاية الجهاد ورحيله على الجزائر.

أبرز موقف نسجله للأمير في مجال الإنسانية، هو أنسنة مفهوم الجهاد نفسه، فالجهاد ليس القتل والدم، والهدم والحرق، بل الجهاد هو دفع الفرد إلى الحق، ورفع الظلم عن الخلق، فلو وُجدت طرق أخرى لتحقيق تلك الغايات، لبطل حكم القتال: "ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد، ولا تخريب البلاد، ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود دفع الفرد والملا إلى كلمة الحق، ولو أمكن حصول ذلك من غير قتال حرّم القتال." (بديعة حسنى، 2000)

عندما رحل إلى فرنسا كان مقامه مزارا للمقاتلين الفرنسيين الذين جاؤوا لتحيته وشكره على كرمه وسعة صدره، فلقد داوى الجرحى وحى الأسرى، وأمن المستجير. لقد علق الكونت دو سيفي في كتابه نابليون III والأمير عبد القادر قائلاً: إن أعدادا من الأسرى الفرنسيين القدامى الذين تلقوا علاجاً من قبل الأمير، كانوا يأتون من مناطق نائية في اتجاه قصر "بو" وقصر "أمبواز"، لتحيته وتكريمه، حيث كان الأمير معتقلاً، والشهادة ذاتها نقلها الحسيني في تحفة الزائر: "... ركب سكة الحديد إلى مدينة أمبواز التي أقام فيها أسيراً أربع سنين، ولما وصل محطتها، وجد جميع سكانها ينتظرون وصوله، فقابلوه بالفرح والسرور، ومشى الأعيان والوجوه إلى محل نزوله" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

إن هذا الاستقبال المجيد لشخص الأمير ناله بفضل نزعته الإنسانية السامية، والتي يذكرها تشرشل في كتابه حياة الأمير عبد القادر، ولقد أورد تشرشل مجموعة من الشواهد كقول الأمير: "إننا لم نُميّز أبداً بين الأسرى ورجالنا بخصوص الطعام والمأوى" (هنري تشرشل، 1971).

وساق هنري تشرشل في كتابه حياة الأمير الكثير من الأحداث الدالة على إنسانية الأمير عبد القادر، ومن ذلك حادثة قتل القاضي، إذ تأسف الأمير على قتله وعاقب قاتله لكونه لم يحترم إنسانيته بالرغم من خيانتته للأمير.

تُعد رسالة الأمير عبد القادر لأسقف الجزائر السيد ديبوش سنة 1841 أكبر دليل على علو همته الإنسانية وفتورها عند الخصم، فالأسقف طلب من الأمير أن يُفرج عن بعض الأسرى فقط، فلم يعجب الأمير الطلب فرد عليه قائلاً:

"لقد كان أجدى بك، بوصفك عبد الإله وصديق الإنسان ليس فقط أن تطلب مني إطلاق سراح أسير واحد، بل أن أطلق سراح كل الأسرى المسيحيين- كما جاء في إنجيل العهد الجديد - عامل الآخرين بمثل ما تريد أن تعامل به. قد يكون الأسقف قد أدى مهمته على أحسن وجه ... لو قام بجميل من هذا القبيل... لصالح عدد مماثل من الأسرى المسلمين القابعين في السجون الفرنسية."³

إن تحريك النزعة الإنسانية الدفينة في فطرة كل البشر أثمرت جملة من الرسائل، منها: حدوث أكبر عملية تبادل للأسرى بين الجيشين في مكان يسمى سيدي خليفة. ولم تتراجع مكانته في نفوس أعدائه بالرغم من حادثة قتل الأسرى الفرنسيين على يدي خليفته مصطفى بن التهامي سنة 1846⁴.

أما الحادثة التي يعرفها العالم بأسره، هي حادثة دمشق سنة، فلقد قام الأمير بإنقاذ 12 ألفاً من المسيحيين واليهود من الموت المؤكد، حيث فتح لهم أبواب بيته وتصدى للمسلمين ومنعهم من قتل المخالفين في الدين والعقيدة، وعلمهم كيف يحترمون الإنسان بغض النظر عن المعتقد.

نقل كثير من المؤرخين تلك الواقعة، ومن بينهم ابنه محمد عبد القادر الحسيني حيث يقول:

"فبعثوا إلى الأمير يستغثونه، فأرسل إليهم فرقا من المغاربة لحمايتهم من الدُّعار، ولما غصت دور الأمير بالنصارى مع تعددها واتساعها، أخذ يرسلهم إلى القلعة بإذن الحكومة، فاجتمع عنده وفي القلعة نحو الخمسة عشر ألف نفس، وكان الأمير يقوم بنفقة الجميع." (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903)

³ نقلًا عن: تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر. ص. 201.

⁴ المرجع نفسه، ص. 235.

لقد أشاد المسيحيون أنفسهم بالأمير، وخاصة البطارقة والقساوسة، حيث جاء في كلمة التأيين للبطريك الأنطاكي: "وأما الأمة المسيحية فقد فقدت بشخصه الكريم ملاذا قويا ودرعا منيعا تكسرت على شفاره ألوف من السيوف كانت على حياتهم قاضية، تُذكر له سنة الستين وقلوبها تفيض بالمنة والشكر الجميل" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

كان لتلك الحادثة نتائج مذهلة إذ أمطر ملوك العالم صدر الأمير بالأوسمة والنياشين للشهادة على فرط إنسانيته، وقوة عزمته. جسدها الشاعر عبد الرزاق فتاحي في قصيدة جاء فيها:

في فتنة الشام الشريف
قد سكن الخطب المخيف
بحزمة الوافي المنيف
خف البلا عن قطرنا
في فتنة الشام كم وفي من الهمم
حتى حكى صنعه نارا على علم
وقد حبته ملوك الأرض بالنعيم
وللفخار نياشيننا زهت زيا

وتدل القصائد التي كتبت بعد وفاة الأمير تدل على صدق المشاعر الإنسانية المتبادلة بين الأمير عبد القادر وغيره من سكان بلاد الشام خصوصا، فلقد عبر كثير من الشعراء عن مدى حزنهم لوفاة مناصر الإنسانية وحامها:

ولتبكك الشام إذ قد كنت شامتها
وليبكك الغرب إذ قد كنت مولاه
ولتبكك العاديات الموريات بمي
دان الحروب الذي قد كنت تغشاه
تنعي النعاة ابن محي الدين من حزن
يا خير من شكر الرحمان مسعاه
يا خير من قام في محراب طاعته
مناجيا في دجى الأسحار مولاه
من للرياضيات أو من للعفاة ومن
لابن السبيل إذا ما أمّ مغناه

ويمكن الاستدلال بكثير من الرسائل التي كتبها ملوك العالم وقناصله، والتي اتجهت كلها صوب الحديث عن تجربة الأمير الإنسانية. لقد كان الأمير إنسانا مُشبعاً بإنسانيته إلى حد الفناء في الإنسان فناءً روحياً أوجبه الله من حيث هو نافخ روحه فيه، نفخ تفضل وتكرم لا نفخ وجود وتجسد.

كتب ملك روسيا إسكندر الثاني رسالة كلها تركيز على إنسانية الأمير عبد القادر، وانهار بتجربته وممارسته لها، فالغرب ينظر للزعة الإنسانية لكن التجربة كثير من الأحيان تختفي وراء السياسة والبحث عن الأمجاد.

جاء في متون الرسالة ما نصه : "... اقتضت رغبتنا أن نشهر التفاتنا إليكم بشهامتكم وعملكم بما اقتضه الإنسانية، واجتهادكم في إنقاذ أُلوف المسيحيين من أهالي دمشق الذين وجدوا في خطر عظيم، اقتضى الحال أننا سميناكم من أعظم فرسان الإمبراطورية الملوكانية المشهورة بالنسر الأبيض، وهذه علامتها واصله إليكم، ونحن لم نزل باقين على المحبة لنحوكم بالاعتبار الإمبراطوري الملوكي" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

وقد شعر ملك روسيا أن الكلمات لا تفي الأمير عبد القادر حقه، فبعث له وسام النسر الأبيض، وهو من أعظم النياشين التي يسلمها الملك. لقد كان النيشان عربون محبة، وتقديراً لإنسانية الأمير عبد القادر.

يجدر بنا في هذا المقال الكريم أن نذكر بأن المستقبل قابل لكل ممكن، فالعدو بالماضي قد يصبح صديقاً مقرباً، وصديق الماضي قد يصبح عدواً، ذلك ما نكتشفه من المراسلات التي حدثت بين ساسة فرنسا والأمير عبد القادر، فالرسائل المتبادلة أثناء إقامته بفرنسا كانت باهتة وسطحية ولا تعكس مقام الأمير الإنسان القائد. بيد أن أحداث الشام جعلت الساسة في فرنسا يدركون عمق الخطأ الذي ارتكبه في حق الرجل.

كتب وزير خارجية فرنسا رسالة جاء فيها : "أيها الأمير السامي إن خبر الحوادث الشامية قد طرق مسامع الدولة الفرنسية، وإجابة لطاعة مولاي الإمبراطور وإرادته، بادرت الآن بإعلان اعتباره السامي والتشكر الوافر من طرف جلالته على السعي الذي تكرمتم به على الأهالي المسيحيين، والراهبات والمبعوثين الفرنسيين، وجمهور القناصل بتلك الواقعة المحزنة، والمزية العظيمة في ذلك هي مشاهدة همتكم العلية التي جعلتكم وقاية لحياة أُلوف المساكين، وجعلت محلكم ملاذاً لهم في وقت كان الأشقياء الخارجون عن الطاعة

يرتكبون القبائح المخالفة لأوامر الباري تعالى، وما تقتضيه الإنسانية" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

ولم يقف الأمر عند الساسة والقادة الفرنسيين، بل المجتمع المدني الفرنسي أحس بظلم فرنسا للرجل، وهذا ما عبر عنه أعضاء الجمعية الفرنسية بفرنسا: "إلى الأمير الأجل عبد القادر في دمشق، أعلم أيها الأمير أن العالم المتمدن قد كلل هامتك الشريفة المقدسة بإكليل الشرف والافتخار، ونحن نقدم إليكم فرحنا بكونكم تسميتهم من المحكوم لهم بحسن السيرة من أي فرقة كانوا أو دين الذين أظهروا أنفسهم بكامل الإنسانية. وأنت قد أظهرت نفسك إنسانا قبل الكل، ولم تسمع إلا إلى إلهامات ربانية في قلبك أمرتك بمقاومة نار مشتعلة من الهيجان البربري، والتعصب الجاهلي. نعم إنك النائب الوحيد للأمة القوية العربية. التي أوروبا مديونة بقسم عظيم من تمدنها وعلومها التي استنارت بها. ولقد أثبتت بأعمالك وبكريم شيمك أن هذا الجنس لم ينحط اعتباره السابق، وهو وإن كان الآن في سنة من النوم، فسيتيقظ للأعمال العظيمة باستدعاء نفس قوية نظير نفسك. وانظر، فرنسا التي كانت خصيمتك، فإنها الآن عرفت كيف تعتبرك وتبتهل بك، وما ذلك إلا لكونك أعطيت للتمدن حقه أيها الأمير. لك المجد والشكر تكرارا، فالإله الذي نسجد له جميعا، والذي عرشه في داخل قلوبنا وقلوب كافة الكرماء، يتم عمله بكم في الخير. أفلا ينظر إلى العناية الإلهية بعد تقلبات عديدة كيف أتت بكم إلى تلك البرد لأجل تبديد ظلمات الجهل وإطفاء نار التعصب الجاهلي، وإنقاذ تعيسى الحظ من يد الجهلة. وأعلم أيها الأمير الأجل أننا واثقون بأن تقبلوا منا هذه الرسالة وإن كانت لا قيمة لها. حرر في باريس في الثاني من أكتوبر سنة ستين وثمانمائة" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

ويذكر ابن الأمير عبد القادر أنه وصلت بعض الجرائد الفرنسية التي أشادت بالأمير الإنسان، وتراجعت عن ما كانت نشرته عنه أثناء المقاومة والجهاد الشعبي، معتبرا أن الأمير كان متسما بالإنسانية ليس فقط في بلاد الشام، بل حتى عندما كان يقاتل الفرنسيين في أرض الجزائر، واختار ابنه محمد إحدى الصحف الفرنسية (مندا بلو سنمري) التي كتبت مقالا بعنوان (عبد القادر أمير معسكر سابقا) ذكرت فيه ظلم فرنسا لشخصية الأمير عبد القادر، وأن الشائعات بقتله للأسرى تبذرت وتلاشت أمام وقفته الإنسانية في الحوادث الدمشقية: "إن حوادث سوريا المحزنة قد أظهرت للوجود اسما كان محجوبا بغياهب الغربية، وهو ذلك الاسم الذي طالما كررته ألسنة الأمة الفرنسية بالرجفة والاضطراب. هو ذلك الاسم المرسوم بأحرف دموية من شاطئ نهر شلف إلى رمال الصحراء

في الجزائر. وقد أيدت له قناصل الدول ونصارى دمشق الشكران الجميل في سورية، وبذلك انكشف عن مزاياه الحجاب الذي كان ساترا لها، وغدونا جميعا نتبارك باسم عبد القادر وهو الذي اقتحم الأخطار لأجل أولئك المساكين من أيدي سافكي الدماء، ثم جمعهم في قصره وأفاض عليهم من سجال كرمه وبره، وقام فرسان المغاربة الأمناء بمساعدته أحسن قيام، فبدلوا وسعهم في إنقاذ المسيحيين وحمايتهم من اعتداء سفهاء الشام والدروز. هو ذلك الرجل الذي كان يلوح على وجهه من أمارات الثبات، وعلامات الحزم والفتنة ما يدل على شرفه واتصال نسبه بالرسول. هو ذلك الرجل الذي أقام في منفاه سنين ولم يتغير عما كان عليه من المحافظة على الأوامر الشرعية، وأداء الحقوق الثابتة للإنسانية" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903)

لم يتوقف الأمر عند فرنسا وروسيا، بل تعدى الأمر إلى اغلب الدول الأوروبية، فملك إيطاليا: "إن عظيم تصرفكم في أمر المسيحيين في الحوادث الشامية قد أثبت أمام أوروبا، أنكم ممن حاز المزايا الحربية العظيمة، خصوصا في الحادثة الدمشقية التي أنقذتم فيها النفوس الكثيرة، فكان ذلك حلية لنفسكم الكريمة المصطفاة، ثم إنه يوجد بيني وبينك أيها الأمير العزيز مواصلة أفرح بذكرها، وهي محبة الحرية التي تجعل تابعها محافظين على العدالة الحقيقية. وإذا كنت في أيامك السابقة لم يمكنك الحصول على النجاح التام على حسب مرغوبك، فهذا لا يكون مانعا لاكتسابك بالنظر لشجاعتك القوية، الاحترام والاعتبار من جانب أهل الحرب المعاصرين، لك وللذين يقاتلون في صالح استقلالية الشعوب، ونظرا لشهادتي بهذا الاحترام المخصوص لشخصك الكريم، فأنا مرسل إليك الآن الشريطة الكبرى نيشان موريس والعاذر، وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية، وهو يُسلم لك على يد اثنين من ضباطي، وهما الكاوالبردي كاستيلونيو، والكونت دي كاستيلونيه، القادمين إلى حضرتك لأجل هذا الأمر، وإني أوصي بهما شديد اعتنائك، وأرجو أن تصادفك السعادة فيما بين يديك أيها الأمير السعيد نظير النداء الذي يقطر من السماء ليعطي الإقبال إلى الأرض، والمأمول قبول هذا الدعاء مني لأجلك في المستقبل، كما أنني أرجو أن تعتقد تمام محبتي" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

ولم يفوت ملك اليونان المساهمة في بلورة تلك النزعة الإنسانية لدي الأمير، إذ كتب رسالة نصها: "نحن أوتون بنعمة الله ملك اليونان، قد أعطينا الأمير عبد القادر النيشان الكبير رتبة أولى من صنف نيشاننا الملوكي المدعو بنيشان المخلص المؤرخ يولييه، سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف، وأرسلناه إليه ليحمله ويستعمله بمقتضى أمرنا، وبناءً على ذلك

أصدرنا له هذا المرسوم ممضيا منا ثم من وزير بلاطنا الملوكي" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

ومن أروع الرسائل التي تسلمها الأمير عبد القادر تلك التي كتبها قنصل إنكلترا بدمشق : "إلى عظمة الأمير السيد عبد القادر المعروف لسعادتكم، إني قد أمرت من الحكومة الإنكليزية الفخيمة أن أبين لكم حاسيتها الفائقة، نظرا لما أظهرتموه من حقوق الإنسانية، بتخليص حياة جماعة كبيرة من المسيحيين الذين لولا ذلك لهلكوا بين أيدي أهل القساوة في المذبحة الأخيرة بدمشق. وبسلوك عظمتكم عرفت الحكومة الإنكليزية مقامكم الرفيع للغاية، ثم أعرض أن هذا الشرف الذي صيرني واسطة لتقديم حاسيات دولة إنكلترا الفخيمة إلى حضرتكم، أعتبره شرفا عظيما لا مزيد عليه، وقد كنت شاهدت اجتهاد عظمتكم في تخليص عدة أناس كانوا مضطهدين، حتى أنني حصلت بذلك على حاسيات التعجب. والآن لي الشرف بأن أكون مبلغا لكم ما سطرته وداعيا لعظمتكم" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903).

في مقابل هذا العمل الإنساني الرائع، كانت فرنسا تدبح أبناء الشعب الجزائري وتبيد حيواناتهم، وتستولي على أرازقهم، كما تروي يوميات ضباطها وتقارير الصحافيين، كإيزابيل إيبهاردت.

وكانت بريطانيا في التاريخ نفسه تسم سكان الهند بكل أنواع العذاب والتشريد، حيث بلغ تعداد ما قتلتها الدولة البريطانية في الهند ما يقارب 100 مليون هندي.

فأين هي الإنسانية ؟ هل في خطابات فلاسفة التنوير في أوروبا إبان القرن التاسع عشر، أم في أعمال الأمير عبد القادر الجزائري؟

ماذا نستفيد اليوم من الأمير؟؟

يعيش العالم وضعا مأساويا لا نظير له في التاريخ، إذ أصبح الإنسان لا يساوي شيئا في عرف القادة والساسة، فالحروب العالمية والدولية والمحلية قضت على إنسانية الإنسان، وحولت الإنسان إلى مجرد رقم في معادلة المصالح الضيقة.

يدل القتل العشوائي والتنكيل والتعذيب على انعدام المشاعر الإنسانية، ويُندر بكارثة مستقبلية ستؤثر على مقومات وهوية الإنسان. إن فظاعة المجازر المرتكبة في حق الإنسان تفرض علينا إعادة ترهين الأمير عبد القادر، من أجل بث النزعة الإنسانية الغائبة بفعل الوعي الزائف والفتاوى الحمقاء.

إن استثمار الأمير عبد القادر في البرامج التربوية كفيل بميلاد جيل شبيه بالأمير عبد القادر في سلوكه وفكره، وحبه للوطن، واعترافه بالآخر. لقد غُيِّب الأمير كتراث فكري وإنساني، وحضر كأيدولوجية فقط، ونحن نعلم أن الخطاب الأيديولوجي لا ينتج إلا رجالا ضعفاء وعالة على الوطن.

إن الأمير ليس مسيرة جهاد فحسب، بل مسيرة إنسان عرف أن الله لم يصطف لنفسه جنسا ولا عرقا، بل جعل الناس كلهم كعملة واحدة، لذلك يجب أن يتعلم المسلم اليوم أن أكرم شيء عند الله هو الإنسان، ويفرض ذلك التكريم والتقدير أن نحفظ نفسه، وعقله، وعرضه، وماله، ودينه، وأي تعدٍ على أصل من تلك الأصول الخمسة، هو نقض للإنسانية، وفض للعهد مع الذات الإلهية.

بيبلوغرافيا

- أحمد، البرقاوي (1995، شتاء). (عودة إلى ذكرى العاقل وتنبيه الغافل للأمير عبد القادر الجزائري) مجلة النهج، (38)، السنة 11، منقولة عن المجلة الإلكترونية Maaber.com
- حسنى الجزائري، بديعة (2000). وما بدلوتبديلا. (ط. 1) دمشق: دار الفكر. ص. 6.
- تشرشل، شارل هنري (د. ت). حياة الأمير عبد القادر، (د. ط) تعريب: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، صص. (197-237-201-235).
- مالك، بن نبي (1986). وجهه العالم الإسلامي. (ط. 5). تعريب: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ص. 20.
- محمد عبد القادر (1903). تحفة الزائر. الإسكندرية: دار غرزوزي وجاويش، صص. (98-99-100-101-112-159-94-261).
- محي الدين، ابن عربي (1946). فصوص الحكم. (أبو العلا عفيفي، تع.). بيروت: دار الكتاب العربي.
- محي الدين، ابن عربي (1990). الإنسان الكامل. (ط. 2). جمع محمود محمود غراب، دمشق: دار الكاتب العربي، ص. 29.
- محي الدين، ابن عربي (1998). إنشاء الجداول والدوائر. مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ص. 36.
- محي الدين، ابن عربي (د. ت). تاج التراجم، ص. 13.
- نصر، حامد أبو زيد (2002). هكذا تكلم ابن عربي. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب المصري، صص. 14-15.